14 me Année No. 268

Lundi—29—7—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٨٢ « القاهرة فى يوم الإثنين أول رمضان سنة ١٣٦٥ — ٢٩ يوليو سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

النقد عنـــد العرب

وأسباب ضعفهم فيه

— ٢ —

فأنت ترى أن الموازنة التى قام بها الآمدى إنما كانت بين أبيات مفردة اختارها من مطالع أبى تمام فى الوقوف على الديّار ونحوه[1]، واختار ما يقابلها من مطالع البحترى، ثم علق على هذه الأبيات تعليقاً موجزاً لا يتصل بموضوع القصيدة ولا وحدتها ولا غرضها ولا سياقها، كأنها لم تكن عضواً فى جسم ولا جزءاً من كل؛ ولذلك تفرغ من الكتاب وأنت لا تدرى أى الشاعرين أفضل. وهذا النحو الذى نحاه الآمدى فى الموازنة والحكم هو الغالب على رجال الأدب فى تلك العهود. فكثيراً ما تجدهم يقولون: فلان أوصف الشعراء للقوس، أو أنعتهم للخيل، أو أمدحهم للناس، لأنه قال بيتاً واحداً فى وصف قوس أو نعت فرس أو مدح ملك. ولم أقف على موازنة بين قطعتين كبيرتين من قصيدتين إلا فى كتاب (المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر) لضياء الدين نصر بن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٣٧ فقد وازن بين قصيدتين فى وصف الأسد للبحترى والمتنبى، وبين قصيدتين فى الرثاء لأبى تمام والمتنبى، وإن لم تكن الموازنة تامة من كل وجه ...

(١) ذلك فى الجزء المطبوع وقد علمنا أن للكتاب بقية قيمة لم تطبع

ومن الظواهر التى تسترعى نظر الباحث أن اللغويين والبيانيين قد أغفلوا نقد المنثور إلا ما اتصل بالقرآن الكريم والحديث الشريف. وقد ظهر أثر هذا الإغفال واضحاً فى كتاب نقد النثر المنسوب إلى قدامة بن جعفر فإنه يكتب البيان والبديع أشبه. ولعله لو وجد ما يحتذيه فى هذا الباب من كلام الأدباء لأبان عجزه ووضح قصوره. وما ذكره ابن الأثير فى كتاب المثل السائر إنما دار على الرسائل المسجوعة دون غيرها من أنواع النثر.

فما سبب قصور العرب عن النقد البيانى، وما علة هذا النقص الذى استتبع نقصاً مثله فى تاريخ الأدب؟

سبب ذلك أن أسبق الأدباء إلى النقد هم اللغويون والنحاة. كانوا هم قضاة الشعر فى أواخر القرن الثانى وفى القرن الثالث، إليهم يحتكم الشعراء، وعنهم يأخذ الملوك والأمراء، حتى قال الخليل بن أحمد: « إنما أنتم معشر الشعراء تبع لى، وأنا سُكان السفينة إن قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم ». وغرض هؤلاء اللغويين والنحاة من النظر فى الشعر إنما كان جمع الشواهد على غريب الألفاظ وصحة القواعد، وتسجيل معانى الشعر ومَن ابتكرها ومن سرقها. فكلما كانت القصيدة أحفل بالشواهد وأجمع للغريب كانت أجود، وكلما كانت المعانى أرسخ فى القدم وأصل فى الابتكار كانت أفضل. ومن ذلك كان أغلب النظر مقصوراً على الأبيات المفردة الشاهدة على صحة الكلمة، أو سلامة القاعدة، دون نظر إلى علاقتها بالقصيدة. وكان الرأى مجمعاً على تقديم الشعر الغريب على المأنوس، وتفضيل الشاعر القديم على

المحدَث . وقد أغرقوا فى إيثار الجاهلى على الإسلامى من غير ميزة إلا الأقدمية ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما فضلت عليه أحداً » . وكان شعراء القرن الثانى ينكرون ولا بد على أقطاب اللغة والأدب هذا التحكم ويسألونهم الإنصاف ، فقد روى صاحب الأغانى أن حاداً الأرقط قال : « لقينا ابن مناذر بمكة ، فأنشدنى قصيدته : كل حى لاق الحمام فمودِ ... ثم قال لى : اقرأ أبا عبيدة السلام وقل له : يقول لك ابن مناذر : اتق الله واحكم بين شعرى وشعر عدى بن زيد ، ولا تقل ذلك جاهلى وهذا إسلامى ، وذاك قديم وهذا محدث ، فتحكم بين العصرين ، ولكن احكم بين الشعرين ، ودع العصبية »!

وأخذ هذا الإنكار ينتشر ويشتد كلما ورفت ظلال الحضارة فصقلت الألسنَ وأرهفت الأذواق ، حتى هب جماعة من بلغاء الكتاب فى أوائل القرن الثالث ينقضون أحكام اللغويين والنحاة ويبنون الأحكام الأدبية على قواعد أقرب إلى التسوية والموضوعية ؛ فقد قال الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ، ومحمد بن الزيات » . وقال أيضاً : « رأيت أناساً يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ، ولم أر ذلك قط إلا فى رواية غير بصير بجوهر ما يروى ، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان ، وفى أى زمان كان » . وقال عبد القاهر فى دلائل الإعجاز : « روى أن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر سأل البحترى عن مسلم وأبى نواس أيهما أشعر ؟ فقال أبو نواس . فقال : إن أبا العباس ثعلباً لا يوافق على هذا فقال : ليس هذا من شأن ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله ، إنما يعلم ذلك من دُفع فى سلك طريق الشعر ومضايقه وانتهى إلى ضروراته »

ثم سلك ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هذا السلك فقال فى كتاب الشعراء : « ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختار إليه ، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل بين الفريقين وأعطيت كلاً حظه ووفرت عليه حقه ؛ فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله . ولم يقصر الله العلم بالشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً فى عصره ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين ؛ وكان عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته . ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم . وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا ، كالخزيمى والعتابى والحسن بن هانىء وأشباههم . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه وأثنينا عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ولا حداثة سنه ، كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه »

وأخذ مذهب التسوية بين القدامى والمحدثين يذيع على الأفواه ويُروى فى الكتب ، حتى شاع الترف والسرف والظرف فى حياة الناس فتفننوا فى أساليب العيش ، وتأنقوا فى أفانين الكلام ، واستحدث العراقيون ألوان البديع ، وأخذ البيانيون ينقبون عن أنواعه فى عبقريات المولدين ، كما كان اللغويون والنحاة ينقبون عن شواهد اللغة والنحو فى كلام الجاهليين والمخضرمين ، فبأز شأوهم على المتقدمين فى هذا المضمار ، وأخذت سوقهم تنفق ، وكفتهم ترجح ، حتى ظهر فى العلماء من يتعصب لهم ويتعزز بهم . وأشهر هؤلاء ابن الأثير ، فقد ناضل عنهم فى مواضع متفرقة من كتابه المثل السائر ، ومن ذلك قوله . « ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم فى اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف فى اللفظ الجزل واللطيف ، فتى وُجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل . ولقد اكتفيت فى هذا بشعر أبى تمام حبيب بن أوس ، وأبى عبادة البحترى ، وأبى الطيب المتنبى ؛ وهؤلاء الشعراء هم لاتُ الشعر وعُزَّاه ومَناته ، الذين ظهر على أيديهم حسناته ومستحسناته . وقد ضمت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء » وقال فى موضع آخر : « إن فى الشعراء المتأخرين مَن فاق المتقدمين . والذى أدانى إليه نظر